

علاقة مصر ببلاد النوبة

في الجنس والدين

للأستاذ فهمى عبد الجواد حبيب

تمهيد

بلاد النوبة من البلاد القديمة تقع جنوب مصر وعلى بعد نسة أميال من مدينة أسوان . ويجدها من الشرق البحر الأحمر من الغرب صحراء ليبيا ، وتمتد جنوباً حتى ملتقى النيل الأبيض لنيل الأزرق ، غير أن هذا التحديد جغرافياً أكثر منه سياسياً ولم يكن لها حدود سياسية ثابتة . وقد كان ملوك الدولة المصرية القديمة يسمونها « خنت » أى الأراضى الجنوبية كما كانت تسمى « Ta - Sti » أى أرض القوس (أى المشهورون بهي النبال) ولهذا سماهم العرب رماة الحدق .

وقد أخطأ بعض الكتاب فى إطلاق كلمة كوش على جميع بلاد النوبة ، والصواب أن إقليم « كوش » يمتد من الجندل الثانى نرياً حتى ملتقى النيل الأبيض بالأزرق ، وأما الإقليم الواقع بين الجندلين الأول والثانى فكان يعرف « بالواوات »

هذا ويطلق أيضاً بعض الكتاب خطأ كلمة « أنيوبيا » لبلاد النوبة ممتددين فى ذلك على خريطة سريدوت ومن نحو يوه من المؤرخين ، فينسبون للنوبيين ما ليس لهم إذ أن هؤلاء مؤرخين كانوا يمتنون بكلمة « انيوبيا » جميع البلاد الواقعة جنوب مصر كالسودان والحبشة وغيرها . ومما زاد الطين بلة « تمزيق هذا التعريف الخطأ ، ما وقع فيدرهبان سوريا من الخطأ عند ترجمتهم الإنجيل من اليونانية حيث ترجموا كلمة « كوش » أنيوبيا ويمنون بها بلاد الحبشة .

وكانت النوبة على عهد العرب تنقسم قسمين : النوبة السفلى تمتد من الجندل الأول إلى الرابع وعاصمتها دنقلة ، والنوبة العليا تمتد من الجندل الرابع حتى بلاد الحبشة وعاصمتها سوبة على نيل الأزرق .

وقد كانت لهذه البلاد فى وقت ما عزة ومناعة ثم اعتورها ما يمتور كل موجود حتى صارت حالها إلى ماهى عليه الآن .

المعرفة بينها وبين مصر فى الجنس

أجمع المؤرخون على أن المصريين والنوبيين من أصل واحد مدللين على صحة قولهم هذا بأن كلا الشعبين ينتسب إلى الجنس الحامى فضلاً عن تشابه لون بشرتهم . والواقع أن سكان مصر العليا والنوبة حتى الآن متشابهان ، وأما الوجه البحرى فنظراً لأن حدود مصر من جهة القنطرة سهلة الغزو فكان عرضة للغارات الخارجية ولذا سار منها الغازون أمثال الرعاة والاسكندر وقبيل وغيرهم ؛ ومن ثم تأثر الوجه البحرى بدم هؤلاء الغزاة فتغير كثيراً عن مصر العليا . وهناك عامل آخر أثر فى جنسية سكان شمالى مصر وبشرتهم نوعاً ما ، ذلك أنه رحل إلى شمالى أفريقيا قبل بناء الأهرام بعض الأوربيين ، وهؤلاء المهاجرون انتشروا فى شمالى أفريقيا حتى جزائر كناريا . وقد وجدت ابنة لحوفو شرق الهرم الأكبر من الجنس الأبيض ذى الشعر الأشقر وتعليل ذلك أن خوفو تزوج واحدة من هؤلاء البيض ، كما أنه وجد فى العوينات رسوم لفريقيين من المتحاربين السم والبيض وقد حدث فى عهد الأسرة العشرين حادث ذوبال : ذلك أنه فى عهد هذه الأسرة قل دخل الحكومة لفقد مصر كثيراً من البلاد الآسيوية فنقص ما كان يتقاضاه كهنة آمون فى عهد الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فضلاً عن ضعف الملوك ، فدعا ذلك إلى ازدياد سلطة هؤلاء الكهنة حتى تمكن أحد رؤسائهم المسمى « حرحور » من اغتصاب العرش وأسس الأسرة الحادية والعشرين ، ولكن المصريين اعتبروا كهنة آمون مقتصبين للملك فصار عهدهم فوضى ولم يستطيعوا حفظ سلطانهم ولا القيام بما تتطلبه عظمة آمون من النفقات ، ورأوا أن محبوبهم يعبد فى « نبتة » عاصمة النوبة فى ذلك الوقت وأن له المقام الأول بين آلهة النوبيين فلهذا اختاروا « نبتة » لتكون قبلتهم فى هجرتهم فهاجروا إليها من طيبة بعد أن حكموا بها ١٢١ سنة من ١١٠٠ - ٩٧٩ قبل الميلاد .

وقد رحب بمقدمهم النوبيون نظراً لأن المدينة التى نشرها المصريون فى النوبة كانت لا تزال قوية الدعائم ، وكان هؤلاء الكهنة

ولما زاد اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس للمسيحيين وأوقع بهم وقته المشهورة كثر التجاء الرهبان وغيرهم إلى الجبال والصحراء فترجح إليها الكثيرون وأقاموا بها يشرون بدينهم ما استطاعوا، حتى إذا ما أتى زمن قسطنطين وترك للمسيحيين حريتهم واستأنم الرهبان وغيرهم أخذوا في الظهور وفي إعلان الديانة المسيحية يعملون لها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وكان لسلكو زعيم سكان الصحراء الغربية والنوبة أكبر نصيب في انتشار المسيحية في هذه البلاد فقد وجد في معبد كلابشة كتابة ترجمتها « أنا سلكو زعيم سكان الصحراء الغربية والنوبيين كافة قد أتيت إلى كلابشة مرتين وحاربت سكان الصحراء الشرقية (البجة) ونصرني الله عليهم وأقسموا لي بألهمهم إزيس وأوزيريس فصدقهم) والإله الذي نصر سلكو هو بلا شك إله المسيحيين . ومن هذه الكتابة أيضاً تعلم أن سكان الصحراء الشرقية كانوا إلى آخر القرن السادس الميلادي يبدون الآلهة المصرية . وقد كان من نتيجة المودة بين سلكو وچستيتيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) أن أرسل الأخير أسقفاً وهدايا إلى سلكو فعمد هذا الأسقف الملك، سلكو الذي أخذ ينشر المسيحية في بلاده . وفي عهد خلفه أريانوم تحولت معابد كلابشة والسيوع وعمدة وأبو سمبل وقيلة إلى كنائس ، وقد تم ذلك قبل نهاية القرن السادس واتخذ المسيحيون دنقلة عاصمة للمملكة المسيحية .

وفول الإسهلم البرها

أرسل عمرو بن العاص بعد أن استتب له الأمر في مصر عبد الله بن سعد لغزو بلاد النوبة عام ٢١ هـ فحاربهم وهزمهم وقرر عليهم الجزية ولكنه لم يتعرض لدينهم وفي عام ٣١ هـ غزاهم عبد الله بن سعد في خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه لثاني مرة وهزمهم ثم كتب لهم عهداً جاء فيه : « وعليكم حفظ المسجد الذي بناه المسلمون بفناء مدينتكم (دنقلة) ولا تمنعوا منه مصلياً ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من السبح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم » .

ومن هذا العهد يتضح لنا أمران :

الأول - أن النوبيين حتى عام ٣١ هـ كانوا يدينون بالمسيحية

على جانب كبير من العلم فساعدهم هذا على أن يكونوا رؤساء كهنة آمون في نبتة وتدخلوا في السلطة الزمنية كما سبق أن تدخلوا في مصر وتزوجوا مع النوبيين .

وفي عهد الأسرة ٢٣ تزوج أمير نوبي يسمى « كاشتا » أميرة مصرية ، ثم خلفه على ملك النوبة ابنه « بنتخي » وهنا يجب علينا أن نشير إلى ما لهذا الزواج من أهمية إذ لو كان النوبيون ممتزجين بدم زنجي لما قبل الكهنة على ما هم عليه من المقام الرفيع أن يتزوجوا بهم ، ولما تزوج نوبي بأميرة مصرية .

الريانة

كان النوبيون كالمصريين يعبدون آلهة عدة مثل تيتون وملول، ولما استولى المصريون على بلادهم احترموا آلهتهم ثم أدخلوا عبادة آمون بها وأقاموا له المعابد، وأخذ النوبيون يعبدون آمون حتى أصبح أكبر آلهتهم وصارت آلهتهم الأصلية في مقام ثانوي وكان النوبيون يعبدون من الآلهة المصرية غير آمون إزيس وأوزيريس .

وفول المسيحية البرها

لا يعلم بالضبط كيف ومتى دخلت المسيحية بلاد النوبة ؛ ويقول البعض إنها دخلت من جهة الجنوب، ولكن ليس هناك دليل يثبت صحة ذلك . والرجح أنها دخلت في هذه البلاد من جهة الشمال عن طريق مصر في أول القرن السادس حيث كانت الوثنية هي دين أهل البلاد « فالبيديوس » الذي زار النوبة فيما بين ٤٠٧ - ٤٢٥ م يقول إن البجة وقبائل أخرى من سكان الصحراء الشرقية كانوا وثنيين ، كما أن كتاب شيود وسيوس يثبت أن عبادة إزيس وأوزيريس كانت منتشرة في بلاد النوبة في هذا الوقت ؛ وحتى بعد ذلك بثلاثين سنة كانت إزيس تعبد في جزيرة فيلة . ويؤيد دخول المسيحية إليها من الشمال عن طريق مصر أن المسيحية لما انتشرت في الإمبراطورية الرومانية أخذ الأباطرة يضطهدون معتقبيها ففر بعضهم من مصر التي كانت تحت سيطرتهم في ذلك الوقت إلى الجنوب كما فر البعض إلى الواحات الغربية ليكونوا في مأمن من أذى الرومان ويطشهم . وهذا هو بعينه ما حصل مع الفارق لكهنة طيبة، فأنهم لما أرادوا الهجرة ذهبوا إلى النوبة كما ذهب إليها المماليك في عهد محمد علي باشا فراراً منه